

مِصْرُ وَالْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ  
دولة راحة وجنة راحة وعيش راح

## المراجع الأجنبية

*E. de Cadalvène et v. Barreault* : Histoire de la guerre de Mehemed Ali contre la Porte Ottomane.

*Georges Douin* : La Massion du Baron de Boislecomte

*Weygand* : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils.

*Sir Samuel Baker* : Ismailia.

*Chaillé Long* : L'Egypte et ses provinces perdues.

*Junker* : Voyage en Africa.

*Paton* : A History of the Egyptian Revolution

*Paulitschke* : Le Harar sous l'administration égyptienne.

*Mostafa Amer* : Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar.

## المراجع العربية

الدكتور حسن كمال : مصر والسودان

احمد باشا كمال : الحضارة القديمة

محمد كرد علي : خطط الشام

الدكتور ميخائيل مشاققة : مشهد البيان بحوادث سوريا ولبنان

فؤاد صروف : اسماعيل المقتدى عليه : «ترجمة عن بيير كرايتس»

عزيز خانكي : الذكري المثوية لواقعة تريب

الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء.

الدكتور محمد صبرى : مصر في أفريقيا الشرقية

حسين رشدى باشا : بحث في حالة السودان

عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية

الدكتور عبد الرحمن شهنندر : الامبراطورية العربية : هل يقدر لها العودة

إلى الوجود ؟

الدكتور يوسف قابيل : التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن

الدكتور يوسف هبكل : نحو الوحدة العربية

دينيس ريفوير : العرب الحقيقيون في بلادهم

والمراجع الأخرى المشار إليها في بابى « أهداف العمل لمصر » و « مصر مقبرة

الغزاة » .

من الحقائق التاريخية المستندة إلى اعتبارات جغرافية وطبيعية ثابتة ان الشعوب التي تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط والتي تسكن على شاطئ البحر الأحمر كانت تتجانس دائماً فلا تفرق بينها إلا اعتبارات مفتعلة تعتدى على الرغبة الغريزية الكامنة بنفوس تلك الشعوب في التقارب بل الاندماج . . فالجزء من الأرض الذي تشغله سوريا — وقد كان إلى عهد قريب يشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن — ليس منفصلاً من الوجهة الجغرافية الفنية — عن أفريقيا، بل أنه يقع المنطقة الجغرافية الشاسعة التي يبلغ طولها أكثر من خمسة آلاف كيلومتر والتي تبدأ من شمال نهر زمبزي . وبحيرة « نياسا » . فسهول أفريقيا الوسطى تنتهي في الواقع عند شمال سوريا . أي عند سلسلة جبال طوروس<sup>(١)</sup> ، فلا توجد حواجز جغرافية تفصل بين المنطقة الواقعة عند منابع النيل في أفريقيا والممتدة إلى جبال طوروس في شمال سوريا

والتوافق بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط — وهو داخل في المنطقة الجغرافية نفسها — يبدو واضحاً في وحدة المناخ وهذه الوحدة في المناخ تؤثر في الحالة الاجتماعية للأفراد وفي الأعمال التي يزاولونها . وفي تكوين خلقهم أكثر من تأثير الأوضاع الجغرافية فهي تحدد مدى خصوبة أرضه وطبيعة محصولاته الزراعية . وهذا التوافق بين هذه الشعوب المتجاورة المتجانسة ، لا يقف في سبيله اختلاف الدين . فإلى يومنا هذا نلاحظ أن مسيحي الشرق الأدنى أقرب إلى مسلميه في عقليتهم وأنظمتهم

الاجتماعية منهم إلى مسيحيي الغرب (١)  
ولقد رأت السياسة الاستعمارية أن تنشئ سيطرتها على الشرق وطرق  
مواصلاته بوضع الشاطئ الممتد من حدود مصر الغربية إلى الاسكندرونة  
تحت رقابتها المباشرة وتقسيمه إلى دول صغيرة حيث ركزت تلك السياسة  
الاستعمارية سيطرتها بالتحيز الأقليات فناصرت اليهود في فلسطين .  
والمارونيين في لبنان والأترك في سنجق الاسكندرونة . وتركت للمسلمين  
الأرض الملاصقة للصحراء فقط ! (٢)

ولكن هذا التقسيم المقتعل لهذا الجزء من العالم لم يلق نجاحاً قط .  
فإن خلق دول صغيرة موارد لا تكفى لكي تقف وحدها على ساقيها  
في أسرة الدول . وعدد سكانها من القلة بحيث لا يمكنها من المساهمة  
وحدها في النشاط العالمي . معناه الحكم على تلك الدول الناشئة بالضعف  
خصوصاً إذا تبين أن كل دولة منها لا تشعر بالبرر الجغرافي . أو التاريخي .  
أو الجنسي انفصلها عن شقيقتها المجاورة لها . التي تتكلم نفس لغتها . وتنسب  
إلى نفس الجنس الذي تنسب هي إليه . وتدين أغلبية شعبها بنفس الدين  
الذي تدين به هي .

واقدم حملت مصر - على مدى عصور التاريخ المختلفة - رسالة إقرار  
الوضع الطبيعي المنطقي السليم الذي يحتم جمع كل هذه الشعوب المتجاورة  
المتجانسة تحت لواء وحدة سياسية لا تنقسم عراها . وفطنت مصر منذ أقدم  
عصور التاريخ إلى أن سلامة هذا الجزء من العالم لا يمكن أن تتحقق إلا  
إذا كان البحر الأحمر بحيرة مصرية .

١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East P. 36

٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

١ - ففي عصر ملوك طيبة (٣١٩٧ - ٢٧٧٨ قبل الميلاد) غزا ملوك الأسرة الأولى بلاد النوبة فأثبتوا أن المصرى الأول كان يؤمن بوجود الاتجاه جنوباً إلى منابع النيل لضمان سلامته

وفي عهد الدولة القديمة (٢٧٧٨ - ٢٤٢٣ ق م) غزا الملك زوسر بلاد النوبة وتجاوز الشلال الأول جنوباً وغزا الملك سنفر وسوريا المعروفة وقتئذ بفينيقياً - فكان أول مصرى فطن الى الحدود الطبيعية الشمالية لهذه المنطقة المكونة من مصر وسوريا . وأغار هو الآخر على النوبة جنوباً<sup>(١)</sup> . وغزا الملك سحورع بالأسطول الذى بناه - وكانت به مصر أول دولة بحرية فى التاريخ - شاطئاً سوريا . كما غزا الصومال . وفى عهد الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ - ١٧٨٥ ق م) غزا الملك سنوسرت الأول السودان ووصل الى ما بعد الشلال الثانى . وهناك من يقول إن حدود مصر قد امتدت فى عهد هذه الأسرة إلى ما وراء الخرطوم وإن المصريين أنشأوا عند التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق مملكة مصرية<sup>(٢)</sup> وجابت رسل هذه الأسرة فلسطين وسوريا . كما أن الملك سنوسرت الثالث وصل بجيوشه إلى شمال بيت المقدس وغزا الجزء الجنوبي من سوريا

وفى عهد الدولة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق م) تابع أمنحتب الأول سياسة مصر التقليدية فوصل بالجيوش المصرية إلى ما وراء وادى حلفا وفتح سوريا . كما أن تحوتمس الأول وصل الى منطقة البحيرات التى ينبع

(١) حسن كمال - مصر والسودان مجلة « المقطف » عدد ابريل ١٩٣٦ - وقد ذكر أن « أقدم رواية تاريخية وردت عن اخضاع المصريين للسودان مدونة فى حجر بالرمو » .

(٢) أحمد كمال « الحضارة القديمة » ص ٣٣٧ .

منها النيل<sup>(١)</sup> وعبر جبال لبنان وبلغ نهر الفرات . وقام نحو خمس الثالث ب سبع عشرة حملة شيد بها الامبراطورية المصرية ، وهى أقدم امبراطورية عرفها التاريخ ، حوالى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد فوصل إلى جبال طوروس شمالاً ونهر الفرات شرقاً والشلال الخامس جنوباً ، وقد فعل ذلك لارغبة فى الغزو والاستعمار وإنما لأنه تبين — كما تبين غيره من فراعنة مصر — أن سلامة وادى النيل تحتم تحصين منطقة فى سوريا وكنعان وإنشاء «رأس جسر» tête de pont فى مدخل طريق الغزو بولاية حلب بين نهري الفرات وأورونت كما تحتم موالة إرسال جيوشهم إلى ماوراء برزخ السويس<sup>(٢)</sup> .

ووصلت الجيوش المصرية فى عهد سبتى الأول إلى فلسطين وسوريا وضم رمسيس الثانى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى إلى مصر ووصل إلى بيروت ونقش على صخر يطل على نهر الكاب مايدل على ذلك . وفى العصر الصاوى استخدم نحاو الثانى الفينيقيين فى الأسطول المصرى فأبحر هذا الأسطول من ساحل البحر الأحمر ومر بالصومال وكينيا وغزا الملك إيريس سوريا بطريق البحر . واستولى على صيدا بعد معركة بحرية وخضعت له صور وعادت لبنان وسوريا تكونان وحدة سياسية

---

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues ، ويذكر

الدكتور حسن كمال فى المرجع السابق أن نحو خمس الأول كان يلقب فى عهد أبيه أممحتب الأول باسم أمير «كوش» وهو الاقليم الواقع جنوب وادى حلفا .

(٢) Alexandre Moret : L'Egypte pharaonique من سلسلة Histoire

de la nation Egyptienne لجبريل هانوتو ، وقد ذكر فى هذا المرجع أن شهامة المصريين قد حتمت من غزوات الأمم الهمجية التى كانت تفكر فى غزو مصر من الشرق وأن المصريين قد نشروا حضارتهم فى أصقاع آسيا التى ضموها .

مع مصر . وفي عهد البطالة ( ٣٢٣ - ٣٠ ق . م ) تابع ملوكهم نفس سياسة  
الفراعة وأدركوا أن الشرق الأدنى لن يكون آمناً إلا بادخال فلسطين  
وسواحل سوريا في حدود واحدة .

٢ - وبعد دخول الإسلام إلى مصر تابع حكامها نفس السياسة  
التقليدية . ففي عهد الدولة الطولونية ( ٨٧٠ - ٩٠٥ ميلادية ) سار احمد  
ابن طولون إلى سوريا ووصل الى دمشق وحمص ولم يقف إلا عند الحدود  
الطبيعية وهي جبال طوروس . وامتدت رقعة الحدود إلى نهر الفرات شرقاً .  
وفي عهد أبي الجيش خارويه حاول عمال الخليفة العباسي في سوريا  
نزاعها وإعادتها الى سيطرة الخليفة الموفق فخرج القائد المصري سعد الأعرس  
وتغلب على ابن الموفق ولم يقف بالجيش المصرية إلا عند جبال طوروس .  
ولما تمرد سعداً الأعرس وأعلن استقلاله بسوريا خرج خارويه إلى  
سوريا وهزم سعداً وقتله ودخل دمشق عام ٨٨٦ . ولما أراد ابن أبي ساج  
حاكم الأنبار الانفصال عن مصر واجتاح سوريا مشى اليه خارويه  
بجيش قوى وقاتله بجوار دمشق وهزمه ثم أجلاه عن سوريا فعادت جزءاً  
من دولة واحدة مكونة من مصر وسوريا .

٣ - وفي عهد الدولة الاخشيدية ( ٩٣٥ - ٩٦٩ ) خرج أبو بكر  
محمد الاخشيد لمحاربة محمد بن رائق والى فلسطين من قبل الخليفة الراضى  
بالله أبو العباس بن المقتدر وهزمه في معركة العريش واللجون على مقربة  
من طبرية وانتهت الحرب بامتداد الحدود إلى الرملة ولما اتصل بأبي بكر  
الاخشيد أن سيف الدولة الحمداني استولى على حاب أرسل اليه جيشاً  
بقيادة أبي المسك كافور فلما انهزم أبي المسك سار أبو بكر نفسه في جيش  
آخر وعقد الصلح بينه وبين سيف الدولة على أن تكون البلاد من حمص

إلى حدود جزيرة العرب وحدة سياسية تتبع سيادة واحده .  
ولما تولى أنوجور أبو القاسم خرج أبو المسك كافور على رأس جيش  
مصرى لمحاربة سيف الدولة الحمدانى الذى كان قد استولى على دمشق  
فأجلاه عنها واستولى المصريون على حلب وطرسوس .  
ولما تولى أبو المسك كافور دعى له على منابر المساجد فى مصر  
والحجاز وسوريا .

٤ - وفى عهد الدولة الفاطمية ( ٩٦٩ - ١١٧١ ) خضع الأمير  
الحمدانى حاكم سوريا الشمالية لسيادة المعز لدين الله حاكم مصر . ولما  
قاموا الإخشيديون بالحكم المصرى فى سوريا الجنوبية . مشى إليها الجيش  
المصرى وضم دمشق وما جاورها . وخرجت الجيوش المصرية مرة أخرى  
إلى سوريا فضمّت بيروت وعادت سوريا جزءاً يتمم دولة واحدة مكونة  
منها ومن مصر ولما تولى العزيز بالله بن المعز أقيمت له الدعوة فى  
اليمن والحجاز .

ولما تولى الظاهر بن الحاكم بأمر الله سار الجيش المصرى إلى فلسطين  
وسوريا وأعادهما إلى الدولة المكونة منهما ومن مصر .  
ولما تولى المستنصر استرجع الجيش المصرى دمشق وضم سائر بلاد  
سوريا الشمالية .

٥ - وفى عهد الدولة الأيوبية ( ١١٧١ - ١٢٥٠ ) سار صلاح الدين  
يوسف الأيوبي بالجيوش المصرية إلى دمشق فضمها ثم تابع السير إلى  
حمص وحماه وحلب . وعاد بعد ذلك فانتصر على ملك أورشليم فى مرج  
عيون فى الوقت الذى كان الأسطول المصرى يقاتل أمام شواطئ  
فلسطين وتبين أن رقعة الحدود الطبيعية لهذه المنطقة من الشرق الأدنى

يجب أن تشمل بلاد العرب فوجه الجيوش المصرية إلى والى السكرك  
وأجلاه عن بلاد العرب .

وعاد بعد ذلك ففتح القدس وضم جميع شعور سوريا ثم ضم بلاد اليمن  
فأصبحت جميعها مع مصر دولة واحدة .

ولما تولى الصالح بن السكامل نجم الدين أيوب أعيدت مكة وأعيدت  
اليمن إلى الحدود الطبيعية لدولة مصرية واحدة لا تتجزأ .

٦ - وفي عهد دولة المماليك البحرية « ١٢٥٠ - ١٣٨٢ » استطاع  
المعز أيك التركماني حاكم مصر أن يحتفظ بفلسطين - غرب نهر الأردن -  
مع مصر كجزأين من دولة واحدة كما استطاع الظاهر ركن الدين والدنيا  
بيبرس البندقدارى أن يصبح زعيم الإسلام شرعاً وفضلاً .

وقد تابع بيبرس سياسة مصر التقليدية فضم النوبة وسواكن إلى  
الحدود المصرية ، كما أن فلسطين وسوريا عادتاً فأصبحتا مع مصر أجزاء  
لا تنفصل من دولة واحدة ولم يبق إلا حماه في يد الأيوبيين .

ولما تولى المنصور سيف الدين قلاوون الأتقى ثار أحد أمراء المماليك  
في دمشق وأعانه بدو الصحارى فهزمهم قلاوون واستعاد دمشق .

ولما تولى الأشرف صلاح الدين خليل حكم مصر فتح عكا ورجع  
إلى دمشق وزحف من طريق حلب إلى قلعة الروم وفتحها ثم عاد إلى  
مصر وتأهب لغزو اليمن .

ولما تولى الناصر محمد بن قلاوون خرج الجيش المصرى إلى سوريا  
وهزم جيوش التتر التي كانت قد استولت عليها وعدت مع مصر دولة واحدة .

ولما تولى المنصور علاء الدين على ثار التركمان الذين كانت مصر قد  
عدت لهم حيازة حدود سوريا الشمالية فخرج الجيش المصرى وأخضعهم .

وظلت حدود هذه الدولة ممتدة الى جبال طوروس .

٧ - وفي عهد دولة المماليك الجراكمة « ١٣٨٢ - ١٥١٧ » سار

المؤيد أبو النصر المحمودى لاختضاع أمراء التركمان على حدود سوريا الشمالية وضربت النقود هناك باسمه . ولما عادوا الى الثورة خرج ابنه ابراهيم على رأس الجيش المصرى وأخضعهم

ولما تولى قانصوه الغورى الأشرفى بنت مصر اسطولا بحرياً حارب مراكب البرتغال فى البحر الأحمر وهزمها . وكان أمراء المسلمين فى الهند وبلاد العرب قد استنجدوا بالغورى - سلطان مصر - لحمايتهم من اعتداء السفن البرتغالية التى كانت ترغم تجار الهند والصين على توريد بضائعهم الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشفه فاسكوده جاما بعد أن كانوا يوردونها الى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن وكان البرتغاليون يقبضون على السفن التى تدخل البحر الأحمر . وبذلك يقطعون مورداً مالياً هاماً من موارد الموانئ الحجازية والمصرية فهب الأسطول المصرى لنجدة أولئك التجار المسلمين - رغم بعد الشقة بين مصر وبين بلادهم - وظل القتال مستمراً بين مصر والبرتغال الى أن فقدت مصر سيطرتها على البحر الأحمر فقفى على تجارتها مع الهند

٨ - وفي عهد الدولة العثمانية بمصر « ١٥١٧ - ١٧٩٨ » لم يكد

على بك الكاشف المعروف بعلى بك الكبير يعلن استقلال مصر حتى ستر جيشاً لضم اليمن ثم ضم سائر شبه جزيرة العرب فأصبحتا مع مصر دولة واحدة لا فارق بينهما

٩ - وفي تاريخ مصر الحديث ، بعد انتخاب محمد على باشا والياً على

مصر بإرادة الشعب المصرى ، تابعت مصر سياستها التاريخية فى الامتداد

الى الحدود الطبيعية . فبدأ محمد على بإرسال الجيش المصرى الى الحجاز  
لاخضاع الوهابيين ففتح مكة في يناير سنة ١٨١٣ ثم هدأت الحرب في  
الحجاز فترة وعادت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا ففتحت الدرعية  
عاصمة الوهابيين في ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ وبذلك أصبح الحجاز ونجد  
ومصر دولة واحدة

وقد أحس محمد على بما أحس به حكام مصر منذ تحوّل من الأول وهو  
وجوب جعل وادى النيل من منبعه إلى مصبه وحدة سياسية . فسير الجيش  
المصرى بقيادة ثالث أبنائه الأمير اسماعيل ففتح بربر في ١٠ مارس سنة  
١٨٢١ وفتح سنار في ١٢ يونيو من نفس السنة . وكان جزء آخر من  
الجيش المصرى بقيادة محمد بك الدفتردار - صهر محمد على باشا - قد  
تغلب على سلطان دارفور ودخل الأبيض في ابريل من نفس السنة واستمر  
الجيش المصرى بقيادة الأمير اسماعيل في زحفه فاستولى على فازوغلى في  
يناير سنة ١٨٢٢ . وقد بذلت مصر تضحيات جسيمة في تلك الحرب  
واستشهد الأمير اسماعيل في شندي إذ أحرق غدراً في قصر ملك « شندي »  
وقد بلغ عدد القتلى من الجيش المصرى ثلاثة آلاف رجل (١) .

والمصريون هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم . وأصبحت عاصمة للسودان  
باتخاذ خورشيد باشاها مقراً للحكم . ولا شك أن البعثات التي كان يوفدها  
محمد على إلى السودان هي التي مهدت فيما بعد لاكتشاف منابع النيل .  
فلمصر على علم الجغرافية من هذه الوجهة أكبر فضل (٢) وأول رسالة علمية  
وضعت عن أواسط أفريقية كتبها أحد ضباط الجيش المصرى وهو سليم بك

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . الجزء الثالث ص ١٨٠ .

(٢) دهبيران : السودان المصرى في عهد محمد على - ص ٢١٨ .

قبطان وقد توات نشرها الجمعية الجغرافية الفرنسية .  
وقد تبين محمد علي أن الحدود الطبيعية التي تحمي هذه المنطقة من  
الشرق الأدنى يجب أن تمتد إلى جبال طوروس فعمل على ذلك . ولعل  
أدق وصف لوجوب هذا الامتداد هو ما قرره الدكتور كلوت بك إذ قال  
« منذ تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد لمدينة  
فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية  
إلى مصر . وقد رأينا فعلاً أن موقع البلاد الحربي لا يجعلها في مأمن من  
الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق برزخ السويس فإذا استثنينا غزوة  
الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بوناپارت نجد أن سائر الغزوات  
جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس في عهد قمبيز وغزوة الاسكندر  
والفتح الاسلامي وغزوة الأيوبيين والأتراك وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان  
إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست في  
السويس بل في طوروس » (١)

وقد صرح محمد علي أنه لكي يعطى دولته طابعاً دائماً وحاسماً يجب أن  
يحمى سوريا من خطر الغزوات ولذلك يجب أن يضم إليها كل المناطق  
التي يقطنها العرب ، فهؤلاء العرب سيطلبون دائماً مساعدته وهم يميلون دائماً  
إلى هبة أنفسهم لمصر (٢)

وقد اتضح من جميع تصرفات ابراهيم باشا أنه كان مؤمناً بفكرة  
إنشاء اتحاد سياسي يجمع بين الأقطار المتاخمة لمصر من الشرق والشمال  
وهي الأقطار التي تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام . فقد خيل إلى  
الحكومة الانجليزية أن غرض محمد علي وابنه ابراهيم من جعل الحجاز

(١) عبد الرحمن الراقعي : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٢) Georges Douin : La mission du Baron de Boislecote : P. 9

ومصر دولة واحدة ينحصر في الاستيلاء على نجد والحما لحماية التجارة المصرية من خطر القرصنة في شرق البحر الأحمر وأن مصر بذلك لاتعارض في تعاون الحكومة الإنجليزية معها عسكرياً في شرق جزيرة العرب . أى في المناطق البعيدة عن الشاطئ ، ولذلك كلفت السلطات الإنجليزية في الهند بايفاد من يتفاوض مع ابراهيم باشا على قواعد التعاون العسكري الذي تمنته الحكومة الإنجليزية . ووقع الاختيار فعلاً على السكابتين فريزر سادلير Sadlier الذي أبحر بالسفينة الحربية الإنجليزية Thetis موفداً من قبل حكومة الهند ودرست السفينة يوم ٧ مايو عام ١٨١٩ بالقرب من مسقط . وظل السكابتين سادلير يبحث عن ابراهيم باشا في شبه جزيرة العرب إلى أن استطاع مقابلته في «بير على» يوم ٨ و٩ سبتمبر عام ١٨١٩ ولكن المقابلة لم تسفر عن نتيجة . وعاد إلى الهند دون أن يحقق التعاون العسكري الذي كانت تنشده الحكومة الإنجليزية وبذلك ثبت أن ابراهيم باشا كان يأبى إقرار أى تدخل أجنبي في هذه المنطقة من الكرة الأرضية . (١)

ومما يقطع بإيمان ابراهيم باشا بفكرة إعادة ذلك الاتحاد بين الأقطار العربية المتاخمة لمصر أنه بينما كان محاصراً لمدينة عكا مثل عن المدى الذي يعتزم أن يقف عنده تقدم الجيش المصري فأجاب أن الجيش المصري سيتقدم ما دام يستطيع أن يتفاهم مع الأقطار التي يغزوها باللغة العربية وربما كانت هذه الخطة - دون أن يقصد - أحد أسرار قوته وقد حققت الحوادث إجابته فقد ضمت سوريا إلى مصر وفي عام ١٨٣٣ تم تحقيق المشروع الذي يعود تاريخه إلى عام ١٨٢٢ . فأثمرت أحد عشر عاماً من

---

(١) فيليب جريفز من بحث عن « الرحالة البريطانيين في بلاد العرب في القرن التاسع عشر » مجلة « المستمع العربي » العدد ١١ السنة الخامسة .

المثابرة والجهود ثمرتها . وهى إنشاء دولة مصرية عربية متحدة (١) .  
وقد لاحظ جندى عربى على ابراهيم باشا ذات يوم تحمسه لكل  
ما هو عربى وسأله بتلك الصراحة التى كان يحب ابراهيم أن يشجعها بين  
جنوده « كيف تسيئون سموكم إلى الأتراك فى حديثكم مع أنكم من  
أصل تركى ؟ » فأجاب ابراهيم بحدة « لست تركيا . فقد قدمت إلى مصر  
طفلاً ومنذ قدومى غيرت شمس مصر دى فجعلته عربياً » (٢) وقد ينجيل إلى  
البعض أن هذه التصريحات ربما كانت دعاية سياسية لجأ إليها ابراهيم  
ليجتذب قلوب العرب ولكن الذى يقطع بأن كل الذين كانوا يعملون معه  
كانوا مؤمنين بنفس العقيدة أن مختار بك ياوره فى حروب الشام - وقد  
قضى ستة أعوام فى فرنسا وكان يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها - قد صرح  
للبارون ده بوا الكونت de Boislecomte وهو السفير الفرنسى الذى  
أوفده الدوق ده بروجلي de Broglie وزير الخارجية الفرنسية باسم الحكومة  
الفرنسية فى مهمة خاصة لدى محمد على و ابراهيم وأصدر إليه تعليماته فى  
٨ أبريل عام ١٨٣٣ - قائلاً « إن معظمنا قد ولد فى تركيا ولكن  
إقامتنا فى مصر قد أعطتنا حق التجنس بالجنسية المصرية . إن القانون  
الفرنسى يكتفى بعشرة أعوام يستطيع الأجنبي بعدها أن يتجنس بالجنسية

(١) E. de Cadalvène, et V. Barreult : Histoire de la Guerre de Méhémed Ali contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure, 1831-1833. P. 411,412.

والنص الفرنسى لهذه العبارة هو aussi loin que je pourrai me faire comprendre en parlant l'arabe.

وقد جاء ذلك فى الفصل السادس من هذا الكتاب طبعة ١٨٣٧  
وجاء فى كتاب « ابراهيم باشا » تأليف بيد كرايبيس وترجمة محمد بدران أن  
ابراهيم يفتح تلك الأقطار العربية كان يعتقد أنه وضع أساس دولة عربية اسلامية  
عظيمة قلبها نابس مصر « ص ٤٢ .

الفرنسية . أما نحن فقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نغادر سن الطفولة .  
ولذلك لم نعد تركاً قط . ولم تبق رابطة تربطنا قط بذلك الشعب الذى  
لا يترك فى مروره على الأرض إلا الخرائب . إننا الآن نتسب إلى شعب  
أنبل وأكثر تنوراً . إلى هذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى الحضارة  
وزين تاريخه بإقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه  
الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل بل إلى حدود إيران « وكانت  
فكرة ابراهيم باشا تتجه إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى امبراطورية  
عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون والضباط والجنود إلى  
شعب واحد واعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة . وكيانه السياسى كما  
أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص . وهذه الفكرة توحى إلى  
الخاطر نظرية أكثر اقناعاً وأكمل كما أنها تتضمن عناصر البقاء  
والاستقرار (١) .

وإطالما أيد ابراهيم هذه العقيدة فى تصريحاته المتعددة أمام الضباط  
الذين من أصل تركى والذين كانوا يعاونونه على النهضة بالجيش المصرى .  
من ذلك جملة التاريخية التى قالها لهم « اذكروا أننا لا نزيد عن خمسة  
عشر ألفاً من أصل تركى فى مصر » (٢) .

ولقد أثارت هذه المزيجة على بعث الدولة المصرية العربية إعجاب  
المؤرخين الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ مصر فقرروا أن  
الشعب المصرى سرعان ما يبدأ على أرض وطنه التى استردت شبابها

Georges Douin : La Mission du Baron de Boislecote : (١)  
L'Egypte et la Syrie en 1833 : P. 249,250

والسفير الفرنسى الذى تضمن هذا الكتاب مجموعة رسائله هو Charles Joseph Edmond وهذه الفقرة منقولة عن رسالته المؤرخة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٣٣  
(٢) المرجع السابق P. 417 E. de Cadavène et V. Barreault :

شعباً لين العريكة صبوراً . مسالماً ، ولكنه إذا حارب قاتل ببسالة  
واحتمل العمل بمرح وواجه الأخطار والشقاء غير هيب ولا وجل .  
مستعداً لاتقان أية صناعة . قادراً على استيعاب العلوم في سهولة عظيمة (١)

واستمر ابراهيم باشا ينفذ سياسة إعادة هذا الاتحاد السياسي بين مصر  
والأقطار العربية الأخرى عملياً بجد السيف فحاصر «عكا» وفتحها يوم  
٢٧ مايو عام ١٨٣٢ بعد أن طال حصارها ستة أشهر وبلغت خسائر المصريين  
أربعة آلاف وخمسمائة قتيل . وفتح «حمص» في ٨ يوليو من نفس العام بعد  
قتال عنيف . ولمعركة حمص أهميتها الخاصة لأنها كانت أول معركة التحم  
فيها الجيش المصري بالجيش التركي في ساحة واحدة ويعتبر المؤرخون أن  
المصريين بانتصارهم في هذه المعركة قد ثاروا لأنفسهم من هزيمتهم في معركة  
«الريدانية» أمام السلطان سليم قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون وأن  
الانتصار في هذه المعركة قد رد لمصر سيادتها كاملة وقضى على النفوذ العثماني  
فيها (٢) ثم فتح «بيلان» في ٣٠ يوليو و«قونية» في ٢١ ديسمبر من نفس  
العام . وقد أثار انشاء دولة واحدة من كل هذه الأقطار العربية المتجاورة  
تأثرة الدول الأوروبية ودفعها الى التدخل فيما أمموه «المسئلة المصرية»  
ولكن محمد علي أصر على انشاء هذه الدولة وانتهى الأمر باتفاقية «كوتاهية»  
في ٤ مايو عام ١٨٣٣ وهي الاتفاقية التي تقرر تنازل تركيا عن سورية  
«دمشق وطرابلس وصيدا وحلب والقدس ونابلس» والحجاز ، وبذلك  
عاد هذان القطران فأصبحا وحدة سياسية مع مصر وعادت حدود هذه

(١) المرجع السابق P. 415 E. ds Cadalvène et V. Barreult :

(٢) عبد الرحمن الرافعي « تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث ص ٢٤٨

الدولة تنتهى عند جبال طوروس (١)

وقد تحملت مصر فى سبيل إيمانها بفكرة انشاء دولة واحدة من الأقطار العربية المجاورة لها تضحيات جسيمة . فقد كانت إيرادات سوريا أقل من مصروفاتها فكانت مصر تكمل الفرق من ميزانيتها الخاصة ، وتحقت المساواة بين الجميع فى الضرائب لانفاوت بين الطبقات والمذاهب وأبطلت المصادرات وتقرر حق الملكية وتوطد الامن وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة (٢) ووهب الحكام المصريون الذين ولاهم محمد على على سوريا أنفسهم لتحقيق نهضة هذا الجزء من الدولة التى أعاد محمد على انشاءها فتسمت بيروت فى عهد الأمير محمود سامى محافظها المصرى « نسيماً منعشاً من الغرب المتعدن فاستيقظت من سبات العصور الوسطى وخطت خطواتها الأولى فى سبيل رقيها الحديث » (٣)

وقد دافعت مصر عن هذه الحدود التاريخية بكل قواها . فكانت معركة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو عام ١٨٣٩ بسبب اجتياز فرقة من الجيش

---

(١) وصف المؤرخون هذه الدولة بأنها « امبراطورية واسعة الأرجاء . مساحتها تزيد على نصف أوروبا وتزيد ١٥ مرة على مساحة فرنسا . امبراطورية عظيمة تضارع امبراطورية نابليون و امبراطورية الفراعنة و امبراطورية الرومان تمتد من النيل إلى الفرات ومن البحر الأحمر إلى البحر الأبيض . من فلوات اليمن إلى مشارف الشام . من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . من كعبة المسلمين إلى مقدس النصارى إلى مبكى اليهود امبراطورية جمعت اليمنى والحجازى والمصرى والسودانى والعربى والسورى واللبنانى والدرزى تحت راية واحدة ونعت صولجان واحد » — عزيز خانكى — « الذكرى المئوية لواقعة تزيب » س ١٥ و ١٦ و ١٧ .

(١) محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق : « خطط الشام » الجزء الثالث س ٥٧ .

(٢) الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت من بحث له فى مجلة « السكبية » التى تصدرها هذه الجامعة — المجلد ١٢ س ١٣٠ .

التركي لنهر الساجور وهو النهر الذي ينبع على مقربة من عنتاب ويصب في  
الفرات والذي اعتبرته اتفاقية كوتاهية حداً فاصلاً بين تركيا والدولة التي  
أعاد محمد على انشاءها مكونة من مصر والحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين  
وقد انتصرت الجيوش المصرية في هذه الموقعة انتصاراً حاسماً بعد أن خسرت  
نحو أربعة آلاف قتيل وجريح . وتكامل هذا النصر بتسليم الأسطول  
التركي الذي كان مؤلفاً من تسع بوارج حربية كبيرة وستة عشر سفينة  
حربية أخرى الى الأسطول المصري مما جعل الدولة المصرية العربية الناشئة  
التي نالت هذا النصر أقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط . ولذلك  
عد يوم « نصيبين » أمجد أيام النصر التي رأتها الجيوش المصرية (١)

وقد تبوأ مصر المنتصرة مكان الصدارة بين الشعوب العربية  
ونفضت عنها سيادة الباب العالي الذي كادت الجيوش المصرية تهدد عاصمته  
وأصبحت مصر مركزاً من مراكز القوة والحضارة . مركزاً مستقلاً -  
- بداهة - عن القسطنطينية

ولقد تساءل المؤرخون عن المصير الذي كان يمكن أن تنتهي اليه حياة  
محمد على لو أنه استولى على القسطنطينية وجلس على عرش آل عثمان  
وقرروا أن حسن طالع محمد على قد بدأ في مصر وأن رسالته لم تتحقق إلا  
بمصر ومع مصر فلو أنه اغتصب عرش آل عثمان لوجب عليه أن يعيد سيطرة  
هذا العرش على الأقطار العربية وهي الأقطار التي عمل طويلاً على أن  
ينزع عنها سيطرة العثمانيين : كخليفة الفراعنة والبطالمة والمدافع عن قضية

(١) Weygand : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils

T. 2 P. 115 وقد أضاف أن بعض المؤرخين يقارن انتصار ابراهيم في نصيبين

بانتصار نابليون في « أوسترليتز »

العرب في الاتحاد تحت سيادة واحدة تضمهم جميعاً<sup>(١)</sup>  
وكان المعقول لو لم تخش الدول الأوروبية بأس هذه الدولة الناشئة أن  
يترك الأمر بينها وبين تركيا ولكن تلك الدول الأوروبية أبت إلا أن تثير  
« المسألة المصرية » من جديد فأرسل سفراء النمسا والروسيا وإنجلترا وفرنسا  
وبروسيا مذكرتهم التاريخية في ٢٨ يوليو عام ١٨٣٩ إلى تركيا وبلغ التعنت  
بمرسليها إلى حد أنهم طلبوا من تركيا ألا تقرر شيئاً في شأن المسألة المصرية  
إلا بعد موافقتهم ! وقد تطورت سياسة العنت التي كانت تملئها روح الخوف  
من الدولة الناشئة التي احتضنت كل الأقطار العربية المتجاورة التي تكون  
الشرق الأدنى عند ما تولى « تيير » Thiers رئاسة الوزارة الفرنسية إذ كان  
يرى الإبقاء على مصر وسوريا كدولة واحدة وأن تترك تصفية الخلاف  
بين مصر وتركيا اليهما وحدهما دون تدخل من الدول الأخرى ولكن  
بالمستون - وزير الخارجية الإنجليزية وقتئذ - أبي إلا إحباط سياسة « تيير »  
وانتهى الأمر بعقد معاهدة « لندن » في يوليو عام ١٨٤٠ وهي المعاهدة  
التي اقتضت على ضم فلسطين إلى مصر وبذلك سلخت جزيرة العرب  
وسوريا من الدولة التي أعاد محمد علي إنشائها وقد أجمع المؤرخون على أن  
أصرار إنجلترا على إحباط مجهود مصر في إعادة إنشاء تلك الدولة إنما لأنها  
لحظت أن محمد علي باشا كان يطمع بعد ضم البلاد في إحياء الدولة العربية  
القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية قامت على أساس العدل وجارت به  
الدول المتعددة<sup>(٢)</sup> ولم تصدر هذه الشهادة من المؤرخين العرب فحسب بل  
جاراهم فيها المؤرخون الانجليز اذ قرروا أن عصر المصريين في سوريا هو

(١) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barreult ; P. 418,438

(٢) الدكتور ميخائيل مشافة : « مشهد العيان بمحوادث سوريا ولبنان » ص ١٢٦ .

« مصر الذهبي للمسيحيين »<sup>(١)</sup>

ولا شك أن محمداً علياً كان محققاً في اعتبار معاهدة « لندن » باطالة حين رفضها ولكن الدول الأوروبية تماسكت في موقفها المتعننت من مصر وتراخى « تيير » في تأييده لمصر وترك الوزارة للماريشال سول Soull وكان الأسطول الانجليزي قد ضرب سواحل فلسطين واستولى عليها وانتهى الأمر بالاتفاقية التي عقدت يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ بين وزير الخارجية المصرية والكومودور شارل بيير Napier التي تقضى بجلاء الجيوش المصرية عن سوريا

ولما تولى اسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده في الاتجاه جنوباً لإعادة إنشاء دولة تحتضن وادي النيل وقد استصدر لتحقيق هذا الغرض من الباب العالي فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ الذي ضم سواكن ومصوع الى مصر وكانت محافظة مصوع تمتد الى بوغاز باب المندب وأصدر لتحقيق نفس الغرض فرمان أول ابريل عام ١٨٦٩ الذي عهد به الى سير صمويل بيكر :

١ - إخضاع البلاد الواقعة جنوبي جوندوكرو

ب - القضاء على النخاسة

ج - ادخال نظام تجارى

د - فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة

هـ - إنشاء سلسلة من الحصون العسكرية في أواسط أفريقية<sup>(٢)</sup>

وقد وصلت الحملة المصرية الى خط الاستواء ورفعت العلم المصرى على

(١) Paton : A. History of the Egyptian Revolution نقل عن كتاب

« الذكرى الثوية لواقعة نزيب » للاستاذ عزيز خانكى ص ٥ .

(٢) بيير كرايبينس « اسماعيل المقتدى عليه » ترجمة فؤاد صروف ص ٧٢ .

عند كرو Gondokoro يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧١ ومكّمت «الاسماعيلية» نسبة الى عاهل مصر إذ ذاك (١)

وقد أرسل سير صمويل بيكر الى اسماعيل بهذه المناسبة خطاباً ذكر فيه أن مصر قد ضمت جزءاً كبيراً من أواسط أفريقية وأن حدودها أصبحت تمتد الى خط الاستواء (٢)

واستمرت الحملة المصرية في تقدمها فاحتلت «ماسندي» وأعلنت ضم ولاية أونيوورو Onuyoro الى مصر في ١٤ مايو عام ١٨٧٢

ولقد كان من نتيجة ضم أوغندة الى مصر أن قضى على تجارة الرقيق. وساد النظام وانتشر الاسلام. وكان اسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف النبيلة التي سير تلك الحملة للوصول اليها فكتب اليه يقول «لاتواصل الزحف إلى الأمام. بل استعمر البلاد وعلم السكان واجعل القبائل موالية لك»

وقد كتب سير صمويل بيكر الى اسماعيل يخبره بأن العلم المصري سيوضع على بعد درجة على الأقل جنوب خط الاستواء بحيث تكون الاسكندرية على بعد ٣٣ درجة شمالاً كما أخبره في نفس الرسالة ان ملك أوغندة اعتنق الدين الاسلامي وانه يني جامعاً وسيشرع في بناء مدرسة (٣) وقد ظل سير صمويل بيكر مديراً للمديرية خط الاستواء الى أن عاد الى القاهرة يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧٣

(١) Sir Samuel Baker : Ismailial T. 1—P 248

(٢) بيد كراينيس — المرجع السابق ص ١٦ نقلا عن الملف ٧٢ — ١ .  
محفوظات سراي عابدين .

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ و ٩٨ نقلا عن نفس الملف .

وقد اقتنع صمويل بيكر - بعد خدمته للحكومة المصرية في مديرية  
خط الاستواء - بأن مصر دون غيرها هي الدولة التي يمكنها إدخال التنظيم  
المصرية في الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبي النيل . وأن المدنية لم  
تصل إلى قاف أفريقيا إلا بعد أن امتدت الحدود المصرية إلى خط  
الاستواء . (١)

وعين بعده الأميرالاي محمد رؤوف بك مديراً لتلك المديرية وألحقت  
في عهده بحكومة السودان إلى أن تولى جوردون هذه المديرية في ١٩ فبراير  
عام ١٨٧٤ . وقد نص الخديوي اسماعيل في الأمر العالي الصادر بتعيينه على  
جعل مديرية خط الاستواء منفصلة عن السودان في إدارتها . وحدد هذه  
المديرية بأنها «تشمّل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء  
من جنوب فاشوده وتشمل أيضاً المناطق التي يجب أن تتكون منها» (٢).

وقد تابعت مصر سياستها التقليدية في نشر المدنية بهذا القطر الشقيق  
فأدخلت للمرة الأولى في تاريخه نظام التعامل بالنقود وهو نظام كان يجهله  
الأهالي إلى عام ١٨٧٤ عندما عودهم جوردون عليه .

ولقد أسفر تولى جوردون إدارة مديرية خط الاستواء عن نتائج  
تاريخية حاسمة أهمها رسم خريطة النيل الأبيض من الخرطوم إلى الرجاف  
رسماً دقيقاً مضبوطاً والقضاء على الرقيق وبسط الأمن والشروع في شق  
طريق للملاحة بين غندوكرو والبحيرات الكبرى (٣) .

(١) Samuel Baker : المرجع السابق ص ٤١٢

(٢) الأمير عمر طوسون « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الأول ص ١٠٨

(٣) المرجع السابق - ص ١٥٤ .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل أن جوردون - كماكم لمديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية - أوفد الكولونيل شابي لوئج بك - وهو ضابط أمريكي التحق بخدمة الجيش المصري - إلى ملك أوغندة فعقد مع ملكها معاهدة نص فيها على قبوله حماية مصر لملكته وقد أرسلت هذه المعاهدة إلى اسماعيل فأبلغها إلى الدول وأعلن أن جميع الأقطار المحيطة ببحيرتي البرت نيانزا وفيكتوريا أصبحت وحدة لا تتجزأ من مصر<sup>(١)</sup> وقد عقدت هذه المعاهدة في عام ١٨٧٤ إذ أن لوئج بك قابل ملك أوغندة للمرة الأولى يوم ٢١ يونيو من ذلك العام . وقد تبين أثناء هذه المقابلة مبلغ التوحش الذي كان سائداً في ذلك القطر إذ ذلك عندما أحضر الملك ثلاثين رجلاً وفصل رؤوسهم من أجسامهم زيادة في الاحتفاء بمندوب عاهل مصر ! وعندما دعاه الملك ليشاهد زوجته اللاتي بلغ عددهن مائة زوجة ! وقد سهل مهمته في عقد هذه المعاهدة ما لمسه من العداوة القديمة بين ملك أوغندة وملك أونيبورو وحاجة أوغندة إلى حماية مصر لها من اعتداء أونيبورو المستمر عليهما .

كما أن إدارة مصر لهذه المديرية قد أسفرت عن نتيجة جغرافية عادت على علم الجغرافية بأكبر فضل إذ خطر لجوردون أن يستدعى الرحالة الإيطالي « جيسى » Gessi وأن يكلفه بارتياح البحيرة التي عرفت فيما بعد باسم « البرت نيانزا » لمعرفة حقيقة منابع النيل وحقيقته الفيضان .

وقد قام جيسى بهذه المهمة مع فرقة من الجنود المصريين في شهر ابريل

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues P. 25 وقد

قرر في هذا الكتاب أن هذه المعاهدة أودعت في وزارة الخارجية المصرية ولكن أحد ضباط جيش الاحتلال بعد الثورة الرافقه أحرقها .

عام ١٨٧٥ فكانوا أول من ارتاد هذه البحيرة . وكان العلم المصرى الذى رفر ف على السفن المصرية التى نخرت مياه تلك البحيرة هو أول علم ارتفع فى سماء هذه البحيرة (١) .

وتولى مديريةية خط الاستواء فى غيبة جوردون الضابط الأمريكى الكولونيل براوت Prout الذى كان ملحقاً بأركان حرب الجيش المصرى وذلك من ديسمبر عام ١٨٧٦ إلى مايو عام ١٨٧٧ فلما عاد جوردون عهد إلى الكولونيل الأمريكى ميسون بك Mason بتكملة ما بدأه الرحالة جيسى من اكتشاف البحيرة التى عرفت فيما بعد باسم « البرت نيازرا » وقد قام ميسون بهذه المهمة باسم الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ . وقدّم تقريره إلى مدير مديريةية خط الاستواء وذكر فيه « أن هذا المنبع الكبير نجماً منذ زمن طويل على ملايين من أفراد النوع البشرى . . . وأردت أن أسميه باسم شهير - فلأجل التذكار دائماً باسم الشخص الذى توفى أخيراً وحزنت عليه جلاله الملكة قد سميت هذه البحيرة الكبيرة بهذا الاسم « البرت نيازرا » وحينئذ فبحيرة البرت نيازرا و بحيرة فيكتوريا هما منبعا النيل (٢) » وفى ذلك الوقت كانت جمعية مبشرى الكنيسة الانجيلية الانجليزية قد أوفدت بعض مبشرىها إلى مديريةية خط الاستواء لنشر الدين المسيحى ومن بينهم المبشر فيلكن Felkin الذى جاب أنحاء أوغندة وتبين ظلم ملكها « كباريجا » فكتب يقول « انه لما يؤسف له عدم القضاء على حكم هذا الملك المستبد الفشوم ذلك الأمر الذى كان يمكن أن يتم من زمن لولا المعارضة الشديدة التى كان يبيديها بعض أشخاص فى بلاد الانجليز

(١) الأمير عمر طوسون : تاريخ مديريةية خط الاستواء - الجزء الأول ص ٣٠٨

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى المجلد الثانى - السنة الثالثة ترجمة

الملازم ثانى مصطفى توفيق .

وهؤلاء الأشخاص هم أولئك الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث في الأراضي المصرية نحو الجنوب»<sup>(١)</sup> وهذا يدل على أن سياسة الدول الأوروبية كانت تعرق منذ ذلك الوقت مجهود مصر في إنشاء وحدة سياسية من هذه الأقطار المجاورة لها. ولكن رغم هذا ظلت الحكومة المصرية توالى إرسال البعثات إلى أوغندة تمهيداً لإنشاء تلك الوحدة وأهم هذه الرحلات هي رحلة أمين أفندي الذي كان طبيباً ألمانياً ثم اعتنق الدين الاسلامي في تركيا ولما حضر إلى السودان عينه جوردون طبيباً بمديرية خط الاستواء وقد قابل ملك أوغندة في شهر ديسمبر من عام ١٨٧٧ موقداً من قبل الحكومة المصرية لإنشاء روابط صداقة بين القطرين ثم عين مديراً لمديرية خط الاستواء في منتصف عام ١٨٧٨، فنظم المواصلات مع أوغندة وأدخل وسائل العلاج الحديثة في «لادو» التي كانت قد اتخذت كعاصمة لتلك المديرية وبنى مستشفى وصيدانية وعين لها صيدلياً لصرف الأدوية للعرضى من الأهالي وأمر - للمرة الأولى في تاريخ تلك المنطقة - بزراعة القطن لإيجاد مادة للنسيج. ولما نشبت الثورة المهدية في السودان هجم المهديون بقيادة الأمير كرم الله على مديرية خط الاستواء ووصلوا إلى محطة «امادي» وهي أقصى محطة في شمال المديرية يوم ١٧ نوفمبر عام ١٨٨٤ مقاومها الجنود المصريون مقاومة طويلة ولكنها سقطت في منتصف شهر ابريل عام ١٨٨٥ في أيدي المهديين وحاول المهديون بعد ذلك الاستيلاء على ولاية «مكراكا» Makraka المعروفة باسم «نيام نيام» التي تقطنها قبائل

(١) Felkin « أوغندة والسودان المصري » الجزء الأول ص ٣٢٤ نقل عن كتاب الأمير عمر طوسون المشار اليه سابقاً .

(٢) الأمير عمر طوسون: « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الثاني ص ٣٥ و ١٥٩

« ينيارى » Yanbaris وكانت قد ضمت الى مديرية خط الاستواء فى يناير عام ١٨٧٥ . ولكن الأمير كرم الله انهمزم فى « ريمو » هزيمة منكرة أمام مقاومة الجنود المصريين الذين دافعوا عن « مكاراكا » دفاع المستميت كجزء من اراضى وطنهم .

وكان أمين بك قد توقع نشوب الحرب بين اوغندة وبين اونيورو التى كان ملكها قد أعلن ولاءه لمصر فعين الصيدلى فيتاحسان فى أول يناير عام ١٨٨٦ ممثلاً للحكومة المصرية فى « اونيورو » وكلفه بأن يسهل للدكتور « جونكر » الرحالة الروسى اجتياز أوغندة (١) وأن يتفق مع ملك أوغندة على خير الطرق التى يسلكها المصريون الذين انقطعتم صلتهم بالحكومة الرئيسية فى القاهرة بسبب الثورة المهدية إذا قرروا العودة الى مصر عن طريق أوغندة ولما شبت الثورة العربية وبدأ الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢ أرسل نوبار باشا الى أمين بك - الذى كان قد أنعم عليه برتبة الباشوية - يطلب اليه العودة الى مصر ولكنه فضل البقاء مع جنوده المصريين ولم يكن الرحالة الأمريكى ستانلى هو وحده الذى ستر أطماع مموليه الاستعمارية بالرغبة العلمية المزعومة فى إنقاذ أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء المصرية بل شاركه فى ذلك الرحالة الألمانى Karl Peters الذى سافر هو الاخير مع قافلة الى أعالى نهر تانا بنفس الحجة فعثر فى بلدة ( كافير وندو ) kavirondo على خطاب من ملك أوغندة وجهه الى « جاكسون » ممثل شركة شرق أفريقيا البريطانية The Imperial

(١) نام الدكتور Junker باولى رحلاته الى السودان فى عام ١٨٤٦ وقد سافر اليه مزوداً بتوصية من السلطات المصرية فى القاهرة وقد تمددت رحلاته فى مديرية خط الاستواء على بواخر مصر به بمساعدة المصريين وكتب عن تلك الرحلات كتابه « رحلات فى أفريقيا » .

British East Africa Company وهي شركة كانت قد تأسست في ٣ سبتمبر عام ١٨٨٨ لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى وفي هذا الخطاب يستنجد ملك أوغندا بالشركة ويقبل العلم البريطانى . وقد دخل « كارل » أوغندا وتمكن بمساعدة مبشرى الكنيسة الفرنسية الرومانية الكاثوليكية من عقد اتفاق مع ملك أوغندا يقبل فيه الحماية الألمانية فلم يكد جا كسون يعلم بذلك حتى سارع إلى « منجو » عاصمة أوغندا وحاول استمالة ملكها فلما لم يفلح عاد جا كسون إلى شاطئ أفريقيا الشرقى وأمر لوجارد Lugard أحد موظفى الشركة بالتقدم إلى أوغندا . وأحست الحكومتان الألمانية والبريطانية أن الخلاف سيتفاقم بينهما على تلك المنطقة من مديرية خط الاستواء المصرية فوقمما اتفقا في أول يوليو عام ١٨٩٠ تنازلت بمقتضاه إنجلترا لألمانيا عن « هليجولند » بأوربا في مقابل اعتراف ألمانيا بنفوذ إنجلترا في منطقة منابع النيل . وفي ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ عقدت معاهدة جديدة بين ملك أوغندا وسير جيرالد البرتال Gerald Portal ممثل شركة شرق أفريقيا وضعت فيها أوغندا تحت الحماية الإنجليزية . وفي يونيو عام ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة الإنجليزية عن حقوقها<sup>(١)</sup> ومن هذا السرد الدقيق للحقائق التاريخية يتضح أن الدول الأوروبية كانت تسلم باعتبار مديرية خط الاستواء جزء من مصر بدليل أنها لم تجرؤ على إرسال حملات عسكرية لاحتلالها بل سترت أطماعها الاستعمارية بستر علمية تارة وتجارية تارة أخرى حتى تمكنت إنجلترا من عقد اتفاق أول يوليو عام ١٨٩٠ الباطل مع ألمانيا بشأن جزء من أرض دولة أخرى لاشأن لهما بها ثم من الحصول على موافقة أوغندا على حماية إنجلترا

لها وهي موافقة لا يعترف بها القانون الدولي العام لأنها صادرة من سلطة لا تملك التعاقد باسم الدولة صاحبة السيادة على أوغندة وهي مصر وكان الخديوي اسماعيل يؤمن كما آمن أسلافه من حكام مصر بأن البحر الأحمر يجب أن يكون بحيرة تابعة للدولة التي تتألف من الأقطار العربية التي تدين غالبيتها بالاسلام والتي يتسكون منها الشرق الأدنى فحصل على تنازل تركيا لمصر عن مينائي سواكن ومصوع بمقتضى فرمان ٢٠ مايو عام ١٨٦٦ واستقرت السيادة المصرية على جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلى بربرة . ولم تكن إنجلترا تنظر بعين الرضا إلى هذا الوضع فحاول حاكم عدن الإنجليزي أن يعترض على تدخل جمال بك قائد الأسطول المصري في فض نزاع نشب بين قبائل بلهار وبربرة — وهما ميناءان واقعتان على البحر الأحمر — ولكن شريف باشا رئيس الوزارة المصرية كتب في أول يونيو عام ١٨٧٠ إلى فنصل إنجلترا بالقاهرة يؤكد حقوق مصر على تلك المنطقة ولم تسكتف مصر بذلك بل عينت ممتاز باشا والياً على جميع ساحل أفريقيا من السويس إلى رأس جردفون . فرجع العالم المصري على بلهار في ١٦ يناير عام ١٨٧١ وأراد اسماعيل الأيدع مجالاً للشك في سيادة مصر على تلك المنطقة فحصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر في يونيو عام ١٨٧٥ . وعندئذ تكشفت معارضة إنجلترا عن حقيقة أطاعها الاستعمارية فكتب الضابط وود إلى السفير الإنجليزي بالاستئذان في ٦ أغسطس عام ١٨٧٥ يقول « إن التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة بجملان ساحل البحر الأحمر الغربي كله في قبضة مصر ولا ريب أن المناطق التي كانت من قبل مستوحشة لا يستأنس بها أخذ المصريون يصلونها عاجلاً بالعالم المتمدن » . وقد اعترفت إنجلترا بعد ذلك بحق مصر

في هذه المناطق فعقدت مع مصر معاهدة في ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ وقعها قنصل إنجلترا العام في مصر عن الجانب الإنجليزي وشريف باشا عن الجانب المصري وتقرر فيها أن جميع ساحل أفريقيا الشرقية لغاية رأس جردفون تملكه مصر<sup>(١)</sup>

وقد شهد الإنجليز أنفسهم بعد معاهدة ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ بأن الإدارة المصرية بساحل أفريقيا الشرقية قد وفقت غاية التوفيق فكتب القنصل الإنجليزي في السومال بتاريخ ٦ يونيو عام ١٨٨٤ بقرار أن المصريين أنجزوا في بريرة من الأعمال العامة ما يصح أن تفاخر به أية إدارة « ولم يعد هناك أدنى شك في أن السومال قد أصبح جزءا لا ينفصل من الدولة المصرية برغم المحاولات الاستعمارية التي بذلت لتحويل هذا الوضع الدولي إلى حد أن تمثل إنجلترا في عدن كتب في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٤ يقول « يجب أن نعترف بأن العرب في خليج عدن سواء كانوا مستقلين أو تحت الحماية الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية يرفعون فوق سفهم وفي معظم الأحيان فوق منازلهم ومقابرهم رايات لايشك الناظر في أنها مصرية »<sup>(٢)</sup>.

وقد أجمع المؤرخون على « أن ضم زيلع وبلهار وبريرة وساحل أفريقية الشرقية حتى رأس جردفون إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أي احتلال أوروبي آخر في أفريقيا »<sup>(٣)</sup> وكتب الرحالة الألماني هلد براند

(١) فيليب جلاد - قاموس الإدارة والقضاء الجزء ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) الدكتور محمد صبري - مصر في أفريقيا الشرقية ص ١٦ و ١٩ و ٤٥ و ٤٩ .

(٣) Paulitschke: Le Harar sous L'administration Egyptienne نسخة

إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية في ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ يقول  
« لا توجد أمة أصلح - في اعتقادي - من مصر لرفع مستوى المدنية في  
أفريقية<sup>(١)</sup> » وقد حرص رجال القسم الجغرافي من هيئة أركان حرب الجيش  
المصري على أن يشرفوا اسم مصر في الأوساط العلمية التي كانت معلوماتها  
الجغرافية عن هذه المنطقة من ساحل أفريقية الشرقي لا تزال ناقصة  
مبتورة<sup>(٢)</sup> وقد وضع ضباط هذا القسم خارطة عامة لمصر تسجل جميع  
حدودها عرضت في المعرض الجغرافي الدولي الذي عقد في البندقية  
عام ١٨٨١ .

ولكن أطماع أوروبا الاستعمارية لم تياأس من بتر هذه الأجزاء من  
جسم الدولة المصرية فانتهزت فرصة المتاعب التي عانتها مصر عقب الثورة  
العراقية ووضعت إيطاليا يدها - بموافقة إنجلترا الضمنية - على مصوع  
وموانيء أخرى على شاطئ أفريقية الشرقي وكان ذلك عام ١٨٨٥ ولما  
تمسك الاحتلال الإنجليزي لمصر من قهر مصر على السكوت عن اغتصاب  
حقها في الصومال انتهزت إنجلترا الفرصة لإنشاء نفوذها على شاطئ  
أفريقية الشرق تجاه عدن وعقدت مع رؤساء القبائل في تلك  
المناطق عشر معاهدات في المدة بين أول مايو عام ١٨٨٤ و ١٥  
مارس عام ١٨٨٦ سلموا فيها بالنفوذ الإنجليزي وهي المناطق التي عرفت فيما  
بعد باسم الصومال الإنجليزي وفي نفس الوقت اتضح أن إيطاليا لم تكثف  
بما اغتصبته من الأراضي المصرية على شاطئ البحر الأحمر فجارت إنجلترا

(١) الدكتور محمد صبرى - المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) مصطفى عامر Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar مجلة

الجمعية الجغرافية الملكية . المجلد ١٩ عام ١٩٣٧ .

في عقد المعاهدات مع رؤساء قبائل الصومال الذي عرف فيما بعد باسم الصومال الايطالى (١) وهذا الأسلوب الباطل من عقد معاهدات مع سلطات لا تملك حق التعاقد—لأن القانون الدولي العام لا يعترف لها بسيادة تمكنها من هذا التعاقد— هو الذي اتبعته إنجلترا فيما بعد مع ملك أوغندا في ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ إذ دفعت شركة شرق أفريقية البريطانية إلى الحصول منه على قبوله الحماية الانجليزية وهو قبول باطل ولا يمكن أن يكون له أثر دولي لأنه صادر من جزء من دولة ذات سيادة هي الدولة المصرية . وهذا الجزء ليس له حق التعاقد باسم هذه الدولة دولياً عن طريق توقيع المعاهدات خصوصاً التي تمس صميم سيادة هذه الدولة على أراضيها وتتضمن تعديلاً في حدودها .

والدليل على أن إنجلترا كانت تريد الاستئثار بالنفوذ في حدود مصر الجنوبية الثابتة بمقتضى قواعد القانون الدولي العام والمستندة إلى فتح جيوشها للسودان واكتشاف علمائها لمناجم النيل في بحيرتي البرت وفكتوريا أنها بعد أن اقتطعت ميناء بربرة وما يحيط بها مما أسمته الصومال الانجليزي في المدة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٨٦ وتركت إيطاليا تقطع ميناء مصوع وما يحيط بها مما سمي فيما بعد اريتريه كما اقتطعت مديرية خط الاستواء التي أسمتها أوغندا عام ١٨٩٤ — الدليل على أن إنجلترا كانت تريد الاستئثار بالنفوذ في حدود مصر الجنوبية أنها أيدت مصر في موقفها من فرنسا في حادث فاشودة عام ١٨٩٨ فقد حدث أن وصل الكابتن مارشان Marchand ، وهو ضابط في الجيش الفرنسي ، إلى فاشوده وهي قرية واقعة على النيل الأبيض في كردغان أي في صميم حدود

السودان المصري ورفع العلم الفرنسي فأسرع سير هيربرت كاتشر سردار الجيش المصري إلى فاشودة وطلب إلى مارشان إزالة العلم الفرنسي فلما امتنع رفع كاتشر العلم المصري إلى جانبه وكان لورد سالسبوري Salisbury وكيلاً للخارجية الإنجليزية إذ ذاك نسى الخلاف بإعلان التصريح الإنجليزي الفرنسي في ٢٦ مارس عام ١٨٩٩ وهو التصريح الذي سلمت فيه فرنسا بالانسحاب من وادي النيل على أن تحقق أطاعها في انصال ممتلكاتها في شمال أفريقية وغربها ووسطها ببعضها . ولكن هذا التأييد الظاهر لموقف مصر قد سبقه بشهر واحد . وعلى وجه التحديد في ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ارغام إنجلترا لمصر على توقيع الاتفاق على الحكم الثنائي على الأراضي الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء . أي السودان . وهو الاتفاق الذي ولد باطلاً لأنه يخالف التحديد الذي أقرته نفس إنجلترا للسودان المصري في الكتاب الأزرق الذي أصدرته الحكومة الإنجليزية عن مصر عام ١٨٨٣ أي بعد الاحتلال الإنجليزي والذي اعترف بأن السودان المصري يحد جنوباً بخط يمر في بحيرتي البرت وميكتوريا ويصل إلى رأس جردفون (١) .

وليس هذا الفصل مقام سرد الأدلة على بطلان اتفاقية ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ، فما لا شك فيه أن بطرس غالي باشا الذي وقّع هذا الاتفاق عن الجانب المصري قد أكره إكراهاً على توقيعه كما أن « مصر ذاتها لم تقره رضاهاً ولم تسلّم به إلا مكرهة متسورة بقوة إنجلترا (٢) » وقد ذهب بعض

(١) الكتاب الأزرق عام ١٨٨٣ جزء ١١ ص ٦ .

(٢) حسين رشدي باشا — بحث في حالة السودان السياسية « نشر في ١٧ مايو عام ١٩٢٢ بمناسبة إصرار اللجنة التي ألفت لوضع الدستور المصري على أن يكون لقب رئيس الدولة المصرية « ملك مصر والسودان » .

المؤرخين المصريين إلى أن بطلان هذا الاتفاق يعود إلى « أن القرارات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقات سياسية وقد اعترفت إنجلترا بهذه القرارات » وإلى أن هذا الاتفاق « لم يقترن بملكية السلطان العثماني للسودان وهو ملك له كما أن مصر تابعة للسيادة التركية » (١). ولكن الاستناد إلى هذا السبب للتدليل على بطلان اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يتفق - في نظرنا - مع الواقع التاريخي الذي سبق أن استعرضناه في الفصل السابق من هذا الكتاب. لأن مصر كانت ذات كيان دولي مستقل منذ اتفاقية كوتاهية في ٤ مايو عام ١٨٤٣ وهي الاتفاقية التي عقدت بين مصر وتركيا على أثر انسحاب الجيوش التركية أمام الجيوش المصرية. أما إصدار قرارات بتولية الخديويين الذين تعاقبوا على حكم مصر بعد تلك الاتفاقية فلا ينتقص من سيادة مصر وهو لا يعدو أن يكون إجراءً شكلياً روعيت فيه العلاقة الروحية التي ظلت تربط مصر كقطر إسلامي بتركيا كدولة كانت إذ ذاك تزعم الإسلام باعتبار أن عاهلها كان يعد خليفة المسلمين. والحقيقة التي لا شك فيها أن اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يمكن أن يقيد مصر لأن « السبب الذي دعا إلى إبرام هذا الاتفاق هو الاهتمام بمنع تنفيذ الامتيازات الأجنبية في السودان ووقاية مصر ولو في هذا الشطر من الأراضي المصرية من مساس نظام الامتيازات بسيادتها » (٢) وهذا واضح من نص المادة الثامنة من هذا الاتفاق التي تنص على أنه « لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يمتد بها فيه بوجه من الوجوه » ولم يكن في قدرة إنجلترا أن تحقق هذا الغرض إذا

(١) عبد الله حسين « السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية »

الجزء ٢ ص ٥٢ .

(٢) حسين رشدي - المرجع السابق .

اعتبر السودان جزء لا ينفصل من مصر لأن الدول صاحبة الامتيازات كانت ستطالب فوراً بتلك الامتيازات لرعاياها في السودان . ومقدمة هذا الاتفاق واضحة في القطع بأن انجلترا لم تكن تقصد الاشتراك مع مصر في الحقوق السياسية الخاصة بالسيادة بل «وضع نظام مخصوص لأجل «إدارة» الأقاليم المفتوحة وسن القوانين اللازمة لها» .

وليس أدل على تمصر السودان منذ أقدم عصور التاريخ وعلى أن كل هذه المحاولات الاستعمارية لفصله عن مصر إنما هي اعتداء على الوضع الطبيعي من اسمه المصري القديم فإن المصريين سموه «نوب» وحرّف القوم هذا اللفظ بعد ذلك إلى «نوبه» أو «نوبيا» و«نوب» بالمصرية تعنى الذهب فبلاد النوبة تعنى بلاد الذهب أو بلاد الكنوز كما يسميها أهلها الحاليون ولكن تصريح ٢١ مارس عام ١٨٩٩ لم يقض على الخلاف بين فرنسا وانجلترا نهائياً فعاد يتجدد . واستدعى الأمر في عام ١٩٠٤ توقيع سلسلة اتفاقات بين وزير الخارجية الانجليزية المركزي لاندون Lansdowne وسفير فرنسا في لندن مسيو بول كامبون Paul Cambon ذكر فيها بشأن مصر أن الدولتين اتفقتا على أن النية قد انصرفت إلى عدم تغيير الحالة السياسية التي نشأت من الاحتلال الانجليزي لمصر وأن فرنسا لن تعارض عمل إنجلترا في مصر بطلب تحديد وقت معين ينتهى بعده احتلالها لمصر!

وهذه الاتفاقات التي وقعت في ٨ ابريل عام ١٩٠٤ تحسم القناع عن الأطماع الاستعمارية وتظهر بجلاء خشية الدولتين الأوربيتين الاستعماريتين - إنجلترا وفرنسا - قيام دولة متعاسكة الأجزاء تشمل مصر والأقطار العربية المجاورة لها . وقد نجت هذه الخشية - مع مزيد الأسف - عندما قسمت بعض الأقطار العربية ، التي كانت على مدى

التاريخ أجزاء من الدولة المصرية العربية تقسيماً مرتجلاً لم تراعى فيه أية اعتبارات تاريخية أو جغرافية أو جنسية فوضعت فلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزي وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

١٠ — ولكن كل هذه الجهود التي بذلتها سياسة الدول الاستعمارية

في خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تقض على شعور الأقطار العربية التي تدين غالبية سكانها بالاسلام بواجب الاندماج في اتحاد يجمعها ويشركها في الأسرة الدولية كوحدة سياسية . وقد لمس هذا الشعور جميع المستشرقين الذين توفروا على دراسة هذه الأقطار العربية . فمنهم من قرر أن « أمانى العرب لازالت مماثلة وأصبح مشروع التفاهم المشترك بين فروع دوحه الأسرة العربية العظيمة بقصد التحرر من ربة ممقوتة يظهر بوضوح يوماً بعد يوم . . . والاضطرابات التي هزت الشرق هزات عنيفة في السنوات العديدة الماضية ، ليست مجرد حوادث انفرادية في امكان قوة منظمة أن تكبحها وتردها إلى نصاب الأمن فالفكرة العربية قد استيقظت وأخذت تتشكل بل هي جنسية تستعيد مركزها في مصير الاسلام بعد أن سحقت في الماضي »<sup>(١)</sup> .

وقد استمر زعماء الأقطار العربية التي تكون منطقة الشرق الأدنى وفصلتها الاعتبارات الاستعمارية عن بعضها فصلا متعسفا يدعون إلى إعادة إنشاء وحدة سياسية تجمعها في دولة واحدة . فمنهم من ذهب إلى أنه « إذا أريد بالأمبراطورية العربية مجموعة البلدان التي انحلت في لغتها وعقيدتها ومبدأ ثقافتها واتصال تاريخها وتجاور أراضيها فهذه الأمبراطورية موجودة

(١) Denis de Rivoyre — كتاب « العرب الحقيقيون وبلادهم » الذي صدر

بالفرنسية عام ١٨٨٤ — من تعاقب المستشرق الإنجليزي نيقيل باربر في العدد ٢٤

من مجلة المستعم العربي

وربما كانت هي - وهي بهذا الشكل - أقرب إلى الوحدة المتضامنة منها إلى الحلف المتراخي . أما إذا أريد بالأمبراطورية العربية بلداناً خاضعة لسلطان واحد وتشريع واحد وهيئة تنفيذية واحدة فهذه غير موجودة طبعاً ولكنها يقدر لها الوجود متى اشتدت فيها أنواع الاتحادات المعنوية المذكورة أولاً<sup>(١)</sup> وقد تحدث نفس صاحب هذا الرأي عن الروابط المعنوية التي تربط مصر بالشام فذكر أنه قد «تغنى بها الكتب والشعراء وأن مما يؤيدها» المصلحة المادية الناتجة عن وجودها على بابي الطريق الذي يربط آسيا بأفريقيا . ناهيك عما في هذين القطرين من الخصائص الطبيعية التي يتم بعضها بعضاً . فمن الوجهة المعنوية نحن أمبراطورية تساند الاقليميون الضيقون من أمم أبواء . وإذا قدر لنا أن نرى من بغار على تبادل محسولنا ونهش لزوال الخواجز بيننا . فإن يوم الأمبراطورية العربية بمعنييه الروحي والمادي لا يكون بعيداً .

وقد اهتم أكثر من مفكر مصري بهذا الموضوع الخطير الذي يهم كافة الأقطار العربية التي تكون الشرق الأدنى . فدعا بعضهم إلى انشاء «اتحاد نيلي» يجمع مصر والسودان والاريتيرية وأوغندة ونجني وإن كنا نؤيد هذا الشرط إلا أننا ندهشنا شرطه الآخر الذي يزعم أن «شعوب الأمم العربية تختلف مصالحها الجوهرية لا باختلاف أطوار شعوبها وحده بل باختلاف مواقعها الجغرافية ومبادئها السياسية»<sup>(٢)</sup> لأننا أثبتنا في هذا الفصل أن التاريخ القديم والحديث يشهدان شهادة قاطعة بأن المصالح الجوهرية

(١) الدكتور عبدالرحمن شهبندر الزعيم السوري الكبير : من مقال «الأمبراطورية العربية» . هل يقدر لها العودة إلى الوجود» - مجلة «الهمال» عدد أبريل عام ١٩٢٩ ص ٦٠ وهو العدد الخامس عن «العرب والاسلام في العصر الحديث» .  
(٢) مؤاد أباطه باشا - مجلة «المصور» العدد ٩٤٩ .

للسعوب المجاورة لمصر التي تتكلم العربية وتدين غالبية سكانها بالاسلام كانت دائماً واحدة لاتناقض ولا اختلاف بينها وأن هذه المصالح هي التي جمعت بين هذه الشعوب وألفت بينها ، كما أن الاعتبارات الجغرافية لم تكن قط عقبة في سبيل إنشاء دولة واحدة من أقطار مختلف مواقعها الجغرافية فالولايات المتحدة الأمريكية بولاياتها الثمانية والأربعين التي تختلف العشرات منها عن العشرات الأخرى في الموقع الجغرافي ، والمناخ ، والحاصلات الزراعية . والانتاج الصناعي والتي يقع بعضها على المحيط الاطلنطي والبعض الآخر على المحيط الباسفيكي . والتي يقطنها مواطنون من أصول متباينة بين انجلوسكسونية ولائيمية وسلتية ، يدينون بمقائد دينية مختلفة بين بروستانت وكاثوليك ويهود - هذه الولايات المتحدة الامريكىة دليل قاطع على أن تجربة إنشاء دولة من شعوب مختلفة مصيها النجاح اذا اتحدت المشارب والأهداف واللغة مهما اختلفت العوامل الجغرافية

ودعا البعض الآخر الى إنشاء اتحاد مركزى Federal state بين مصر وسوريا ولبنان وفلسطين فقط <sup>(١)</sup> ونحن وإن كنا نوافق على هذا الشرط إلا أننا لا ندرى لم يقتصر الاتحاد المقترح على هذه الأقطار فقط مع أن الاعتبارات التاريخية التي قدمناها في هذا الفصل تقطع بأن هذا الاتحاد لم يكن قاصراً عليها بل جمع غيرها من الأقطار المجاورة لها التي تربطها بها روابط اللغة والدين والجنس والمصلحة .

فالرأى العملى الذى ينسجم مع منطق التاريخ هو إنشاء اتحاد يجمع بين الأقطار التي أشرنا إليها في هذا الفصل . وهذا الرأى لاندعو اليه

(١) الدكتور يوسف قايل - « التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن » مجلة

الهلال عدد نوفمبر عام ١٩٤١ وهو عدد خاص عن « العرب والديموقراطية » .

غبة في أن يكون لمصر مركز ممتاز في هذا الاتحاد فان جميع اعضائه - فلسطين  
يسوريا ولبنان والحجاز واليمن والسودان واريترية وأوغندة - سيكون  
لكل منها ما لمصر من الحقوق . على أن يحتفظ كل عضو ببرلمانه يسن له  
التشريع الملائم له . ولكل عضو ميزانيته الخاصة . ولكل عضو حكومته  
المحلية الخاصة . إلا أن البرلمان الاتحادي في القاهرة يتكون من نواب  
وشيوخ يمثلون كافة أعضاء الاتحاد . كل بحسب عدد سكانه . كما أن التمثيل  
السياسي والفنصلي للاتحاد في الخارج سيكون موحداً وجيشه واحداً وجنسية  
مواطنيه واحدة ، ويرى الذين يؤمنون معنا بفكرة هذا الاتحاد من أبناء  
الأقطار العربية الشقيقة أن موقف مصر إزاء العالم العربي انها ليست فقط  
جزء منه بل هي قلبه « وأن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادي النيل شعب  
عربي والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التي لا يمكن تغييرها  
كما لا يمكن تعبير مجرى النيل بجعله يجري من الشمال الى الجنوب بدلا من  
جريه من الجنوب الى الشمال »<sup>(١)</sup>

واهتم المستشرقون بهذا الموضوع في الأعوام الأخيرة اهتماماً كبيراً  
فعدوا مؤتمراً خلال شهر يونيو عام ١٩٤٢ في جامعة شيكاغو أقيمت فيه  
عدة محاضرات عن الشرق الأدنى وقد تحدث فيه الاستاذ كوينسي رايت  
Qnincy Wright الاستاذ بجامعة شيكاغو فذكر أن أقطار الشرق الأدنى  
تحتوي على كميات كبيرة من زيت البترول كما أنها تنتج مقادير وافرة من  
محاصيل البلاد الحارة وان هذا الثراء هو الذي جعلها مسرحاً للتنافس السياسي  
بين الدول العظمى وتحدث الكونت سفورزا Sforza فقرر « أن

(١) الدكتور يوسف هيكل ، حاكم صلح مدينة نابلس بفلسطين ، كتاب « نحو

الشرق الأدنى لم يعد بمثابة منطقة مستكنة بين أوروبا وآسيا تتحرك دوله  
وقبائله بأهواء الدول العظمى »

وتحدث الأستاذ جيب Gibb مسلم بأن اتجاه الأقطار العربية إلى  
إنشاء جيش واحد تحت هيئة أركان حرب واحدة وإلى توحيد السياسة  
الخارجية معقول وعملي جدا .

إن إعادة انشاء دولة واحدة من أقطار الشرق الأدنى في شكل « اتحاد  
مركزي » يتفق مع الاتجاه الدولي الجديد الذي نشأ بسبب الحرب الأخير  
من جمع الشعوب التي تربطها بعضها ببعض الآخر روابط اللغة والدين  
والجنس في وحدات إقليمية ، وفي يقيني أن مفكرى هذه الأقطار الشقيقة  
إذا آمنوا بهذه الفكرة — كما آمن — فإن كل عقبة تبدو الآن كأداء  
في وجه هذه الدولة المنشودة ستعلاشى ، لأن أية عقبة يجب الاتميق أحياء  
مجد تاريخى هو كل ما يزهو به أهل هذه الأقطار على أهل سائر أقطار العالم